

خواطر

في الماضي والحال والمستقبل

مما يتعمده بعض الناس وقد يضرهم ولا يفيدهم أنهم يقضون معظم ساعات يومهم إما في التأسف على ما فاتهم أمس وإما في الاهتمام بما يعملونه غداً . والخواطر المدونة في هذه المقالة هي خلاصة ما طالعته كاتبها لغيره من الباحثين في هذا الموضوع وما أملاه عليه اختبار الطويل . وهو يحرص على القراءة لتحصيلها وابداء رأيهم فيها توجلاً الى الحقيقة التي ينشدها كل باحث عاقل

الحال حقيقة بين خيالين

لا يخفى ان هذه الكلمات الثلث — الماضي والحال والمستقبل — كثيرة الشيوع في الالسنه ولا سيما في تعريف الوقت وتحديد اقسام الزمن . فهي والحالة هذه معلومة غير مجهولة حتى عند عامة القراء . ومع ذلك نرى بعد البحث الدقيق والتأمل العميق ان الماضي والمستقبل هما في الحقيقة كالقول والعقائد أي اسمين لا معنى لهما . فلا معنى للماضي الذي زال واندثر ولم يبق أمين وجوده من اثر وكذلك لا معنى للمستقبل غير المعبود لانه باق في حيز العدم ولم يظهر بعد في الوجود . ومهما يكن لهما كايهما من الاثر في عالم الحقيقة الخيالي فهو مستقر كله في الحال أي الوقت الذي نحن فيه . وما اصدق قول ابي العتاهية

« إِنَّمَا أَنْتَ طَوْسٌ عَمْرُكَ مَا عُمُرُ رُبْتَ فِي السَّاعَةِ الَّتِي أَنْتَ فِيهَا »

وقد اخذه ابو اسحق ابراهيم الغزي وزاده تفصيلاً ونسباً فقال — :

« ماضى فات والموت مل غيبٌ . ولك الساعة التي انت فيها »

ومع ما يراد بوصف الحياة بالزوال أو بقصر المدة فالحال يصح ان يطلق ولو من باب التهجيز على الوقت المستمر المستمر . لان الوقت الذي نعيشه بالمستقبل ليس شيئاً الا بعد ما يصير الى الحال . وليس في الامكان تصور وقت ان لم يوجد الحال . ولا يتراض كاتب هذه السطور لرأي الناس في الماضي والمستقبل ولكنه يروم تقرير بعض الحقائق التي يرجو ان تعين على اصلاح خطئ جريتنا عليه ونحن نعدّه صواباً

الاستغناء بالحال منشأ الازراء

عادتنا ان نستخف بالحال ولا نوفيء حقه من العناية والاهتمام لاننا نتصوره فيق من

الحال قصير الامد ونقوم ان لكل من الماضي والمستقبل غاية لا تدرك وسعة لا تحصى .
 فيقول كل منا في نفسه : « ماذا يضرني اذا فعلت هذا او ذاك الآن او ان لم افعل شيئاً
 على الاطلاق ؟ » لان الآن عبارة عن وقت اقصر من ساعة السرور واخيق من صدر
 العاشق المعبور . وهذا الاستخفاف بالخال والغرور في بحس قيمته ما مصدر كل ارجاء وتأخير
 يقول المرجح : — « سأفعل هذا الامر ولكن ليس الآن بل غداً » وبني انه عندما
 يأتي الغد يصبح الآن مثل اليوم ولله سيقول فيه ما قاله اليوم

فارجاء العمل ايّا كان هو تأخيرهُ الى الغد . وسواء كانت فترة التأخير ساعات ام
 كانت شهوراً وسنين فأصل العادة واحد . وعلوم ان الحال ليس نسمة ولا فضاء بل مجرد
 نقطة من الوقت . ولكنه مع ذلك هو الوقت كله فهو اشبه برأس قلم في يد كاتب او
 مصور يجري ويترك وراءه رسوماً وآثاراً . وهو نفسه نقطة محاطة بفضاء غير محدود
 نسيم الابدية

والمستقبل بما فيه من خير وشر محبوب عنا . وعلمنا محصور ضمن حدود الحال مع ما
 فيه من انقراض والابهام . ومن يحاول النظر الى المستقبل فالمرجح انه لا يرى المستقبل
 الحقيقي بل يعاين المستقبل المنسوج على منوال الهم والقلق
 نحن والمستقبل

يزعم بعض الباحثين في هذا الموضوع ان الانسان يستطيع ان يحتم بمصير اموره
 بما يشاء لما في الحال من الابهة والاستعداد . ولكننا نرى بالاختبار ان سيرنا في هذه
 الحياة يشبه في بعض وجوهه سير القوارير في سلك الحديد اي اننا في كل حين على رغم
 الحذر والاحتياط — معرضون لحوادث فجائية تنقض علينا من خزائن الاقدار فتصرف
 مساعينا وتحول سيرنا الى جهة لا نستطيع الانباء بها اكثر مما تستطیع الفاصلة . اذن نحن
 من هذا القبيل سيرون لا محذورون . وتأهنا للتقبل بمرغ الحكم على مصير امورنا فيه
 من باب الاحتمال والترجيح لا من باب الحتم والجزم واذا دعا اهل مريض طبيباً لمعالجته
 جاز عد الشفاء محتملاً او مرجحاً ولم يجر القطع به . اي انه لا يصح الاستدلال بالعلاج
 على وقوع الشفاء قطعاً

فتعليل النفس بتأكيد الحصول في المستقبل على كل ما نتمنى له في الحال لا ينجو
 من التمرض لتبرع مرارة الحياة . على ان هذه المرارة مما تشده نطل اقل من مرارة الندامة
 التي تعقب الاهمال . ونحن يجب امل اهل المريض بشفاء الطبيب له فهو عندم امير خطباً

من تجرع غصص الندامة على أهال امر مريضهم وعدم دعوة طبيب لمعالجتهم
فانأهب للمستقبل واجب لكي تأمن الندم بشرط ان نسير في توقع حسن المآل على
قدم الاعتدال حتى لا نستهدف لعثرات الآمال
« كل ما نرتجيه سهل ونكن عثرات الآمال ليست بسهولة »
كتمن القوى الطبيعية

وهذا التأهب للمستقبل يجري في الغالب على وجع مري متور عن عيون الناظرين
لان طبيعة كل انسان بالغة في انموض والخفاء حدًا يتعذر قياس سمته وسر غوروه .
فكم من رجل بعده الناس ضيق العقل ضيف التكر مخيف الرأي وهو بالحقيقة خلاف
ذلك . وهذا هو السبب الخفي لظهور عظماء الرجال في أمان الحزن والشدائد على غير توقع
ولا انتظار . فقد اشتداد وحالة الكوارث الوطنية واستحكام حلقات الازمات الشعبية
برز الى ساحة الجهاد رجال لم يؤبه لهم من قبل لملولهم وضعهم ويستفدون ما كان مذكوراً
فيهم من قوى الطبيعة ويحوزون شهرة لا يحول لونها ولا يزول ظلها مدى الدهر كاسكندر
الكردوني وبليون ووشنطن ومحمد علي وغيرهم . وظهور عظماء الرجال على هذا الوجه حقيقة
لا ريب فيها وهي اكبر محذور لنا من التجميل في تحديد مستقبل الانسان بناء على ما يظهر
منه الا فباله علاقة بالتوق او التفاضل النفي . فمن لا يستطيع الضرب بالعود وهو ابن
ثلاثين سنة لا يخطئ اذا حكمنا عليه بأنه لن ينظم في سلك نوابغ العوادين . اما عظماء
الرجال الذين اشتهروا في التاريخ بالعلم والفلسفة والكشف والاختراع وجمع المال وبلوغ
اسمي مراتب الجدد والشرف وفتح البلدان وتدويج الممالك فظلموا على واحد منهم في حادثته
ما انبأنا بشدة نبوغه وعظمه مصيره .

ولكن قصار النظر العاطلين من حلية التأمل والتفكر يدهشون عند ما يطالعون
سير العظماء ويرون فيها ما يخالف عقولهم . ليجنون اشد العجب من رؤية انسان يسعى
الى غرض ثم يناله بلا اقل تدرّب ولا استعداد . ولو كان الامر كما خيل اليهم خلقاً
لم ان يدهشوا . ولكنه لم يكن كذلك ولن يمكن ان يكون . فالتدرّب والاستعداد كانا
كاشحين فيه بصورة خفية ولولاها لم يشطع الحصول على شيء مما اراد
ولقد قضت الطبيعة بمعكم تدبيرها ان يكون الخال غالي القيمة عظيم الشأن حتى اننا
لنعجب بكفاية الذين اذا استخبرناهم ما وعدونا قضاءه لبرا الطلب الآن ولم يطلونا الى
غد وما بعده . ومن اكبر منافع التمدن واعظم بركاته انه يسر لنا كثيراً من قضاء

حاجتنا الآن بلا أرجاء ولا إبطاء . فالتلفزيون معدن تنشر رسائله والباقرة
والسيارة والطيارة مبيات لحنا وأثر الكهر بآلي مجهز للإشارة بخطافات الآلات الاصفاء
عشيدة لاختداد تقاس النار . واختبار الناس كافة يزيد علمهم يوماً بعد يوم بشدة احمية
الحال . وليس المستحيل عندهم الآن زمناً يتوقعون حدوثه ضمن الحال في وقتهم المعين أي
عند ما يصير اليوم أمس ويتحول الغد إلى اليوم ويبعث به بعد غد غداً وهي جراً

حنان الماضي وسينائه

وللماضي عند كل أمة حسنات كثيرة يذكرها له بالشكر . ففي عصور مختلفة منه
وعلى درجات متفاوتة وضع الناس أساس ما نشاهد في الحال من التقدم العلمي والادبي
والمادي . ولكن هذه الحسنات لم تكن من أشياء انقضت الغرض منها ولم يبق لأهل هذا
الزمن أقل احتياج إليها فاختدوا بتضايقهم من وجودها وهدموا شوائب سينات تكدر
صفاء تلك الحسنات . وآثار الماضي كثيرة في الغرب ولكنها في الشرق أكثر . وليس
هنا محل استيفاء الكلام عليها

على أنه مما نوافر حنات الماضي عند الذين لا يزالون مشغوفين به وتكثر سينات
الحال عند الناقمين منه والطاعنين فيه فمن الخفق أننا نعيش الآن - كما قال رينان
في إحدى خطبه - في أسعد العصور المعروفة في تاريخ البشر ولنا ان نتوقع لذرتنا
عصراً خيراً منه وأفضل . ومن يتم نظره في اتجاه الأمور على وجه الاحتمال من غير ان
يعنى بالتفاصيل لا يداخله ريب في أنها مطردة السير في طريق الإصلاح والتقىم -
ومن رأي الفلاسفة المتعمقين في درس النظام الشمسي ان مصير الجنس البشري أخيراً
إلى الزوال . ولكن هذا المصير بعيد جداً . فلندع الاهتمام به جانباً ونتوقع بروح الأمل
والرجاء حصول أشياء كثيرة نافعة ومنفعة لبني البشر . فترجو كلنا من صميم قلوبنا إبطال
الحروب وإن لم يتم ذلك في أيامنا ونود انفراج الأزمات الاقتصادية المنيخة بكلاكلها
على صدور الناس ونتمنى أن يزيد انتشار روح الاخاء العام والتسامح الديني

الأم الجدي والعقلي

ولكن شيئاً واحداً لا سبيل إلى رجاء حصوله وهو انقطاع الأم الجدي . على ان
احد أطباء النفس يقول : - « يتهي الأم بزواله » . فكأننا نعلم ما الأم ولا نجهل
صعوبة تحمله في أثناء حدوثه . ولكن بعد انتشار سماته وتقلص خاثره لا يبقى له فينا
سوى الشعور بلذة التخلّص منه . وان لم يترك في الجسد أثراً للدور والتلف عددناه كأنه

لم يكن . وعند ما تشاهد جميعاً صغيراً من الناس في محفل لا يحظر ببالنا ان تصور مقدار الألم الشديد الذي كابדתه أمهاتهم حيناً ولدتهم . وحيناً نمرُّ بأحدى المقابر لا نفكر في آلام النزع المبرحة التي عاناها اولئك الزاقدون في تلك الرموس . واذا راجعنا الآن حوادث الحرب الكبرى التي أحصى عدد قتلاها وجرحاها بالملايين لا نذكر غصص الألم والعذاب التي نجرعها اولئك المنكودو الحظ . وهم يجودون بنفوسهم بل نتجها افكارنا الى تصور شجاعتهم والإعجاب باستبسالهم

اما توقع الألم في المستقبل فيختلف كل الاختلاف عن الشعور بألم الماضي . واذا كان من الصواب ان ننسى الألم الماضي فمن الصواب ايضاً ان نبتهم بالألم المقبل فتخافه ولكن لا نجبن في تداركه . ولهذا الاعتبار نرى ذوي الثقة والمروءة (١) يتحاشون تعريض احد من الناس والمحبات لمعاناة شيء من العذاب ولا يجوزون غمار حرب يستطيعون تلافي شربها . ويسرهم اجتنابها أكثر مما يسرهم نيل النصر فيها

واذا سهل علينا نسيان آلام الجسد في الماضي فلن يسهل نسيان آلام النفس . لأن لها خاصة تجعل عجز عجيبة تمكن رباحها من الميوب بعد الركود وتارها من الشوب بعد الخمود . وبالجد نستطيع إضعافها وتخفيفها . ان جراح الجسد مسجلة الضمد والشفاء . وأما جراح النفس فمعرضة كل حين للانقراض . وقد تخمد نار البركان فيظل أباناً واسابع منقطعاً عن قذف الحمم من جوفه ولكن بركان باضي الانسان يظل طول حياته في ثوران وهياج كالبحر المتلاطم الامواج . والناس ما داموا احياء لا ينسون ما عرض لهم أيام شبابه من بواعث الحزن والأسف ودواعي الفيظ والحنق ولا ما ارتكبوه فيها من الخطأ والخلل . فقه يتسرع الانسان الى النطق بما يغاير الرقة واللفظ ويتأفي الحشمة والادب ثم يندم عليه ولكن صورته تظل ماثلة في ذهنه الى آخر حياته

اذن ما الحياة ؟

فالحياة هي الحال الدائم . وبعبارة أخرى هي اليوم لا الامس ولا الغد . واذا ظهر لنا ان بعض ساعاتها او أيامها اقل قيمة من بقية اوقاتها فطمة ذلك التفاوت في نشاط القوى العقلية وعدم انتظام منوح الفرس . ومن طبعنا الاختلاف بالحال والغض من قيمته . وكثيراً ما يخس الشبان قيمة الحال لانهم لا يستطيعون ان يحولوه من نورهم الى ذهب . ولكن أليس في استطاعتهم ان يحولوه الى ما هو اثن من الفضة والذهب الى معرفة

(١) المروءة ان يزل الانسان غيره منزلة نفسه في النفع له والدفع عنه

واختيار وفطنة وذكره ؟ وإذا ازدري البرية قبة الحان في عصر الكهولة فذلك لخلاف او تراخ يطرأ على نظام القوى العقلية . وفي اواخر العقد الخامس يبدأ الانسان يشعر بمشقة ضبط هذه القوى وتجهدها بما يلزم حفظ نشاطها ومضائها وبحول دون خوارها وكلاهما . وبعد ما يمتد حبل الاجل وتطول شدة العمر يشتد ميلنا الى فسحة الوقت بين العمل المنطرد المعتاد والراحة . انما من سبيل الى مقاومة هذا الميل وكبح جماحه ؟ انيس في الامكان دفع عوادي الضعف عن الحياة في طور اي الكهولة والشيوخة حتى يظل طوال الأعمار محفظين بجانب كبير من كفاية القوى العقلية ونشاطها ؟ والجواب ان ذلك ممكن والامثلة عليه كثيرة . ومن اصدق الادلة على تحسن حالة البشر في هذا العصر ان حياة الناس على وجه الاجمال اطول فيع منها في العصور السابقة . وان كثيرين من الشيوخ في هذه الايام يتلون صحة جسدية وقوى عقلية طافحة باثر الجودة والمرونة والنشاط

والخلاصة

وخللاصة ما يرجوه كاتب هذه الخواطر ان يجد فيها القراء عمومًا والشبان منهم خصوصًا ما يثقل اهتمامهم بالماضي والمستقبل ويزيد عنايتهم بالحال حتى يحرصوا على قضاء كل دقيقة من يومهم في ما يكتسبهم صحة وقوة ويزيدهم علمًا واختبارًا بثقافات عندهم ويثبت بان نفوسهم ويعيد انهم لخدمة امتهم ووطنهم بما لا مزيد عليه من الاهلية والصلاحية . وليعلموا ان كل ساعة يقضيها الثبآن في متلفات الابدان وبفقدات النفوس والاذهان تُعزّضهم فيما بعد لجهد البلاء^(١) وتقادروا امواتًا في صور أحياء . واذا استعادوا في يومهم ذكر ما فرطوه اس واستوجب ندمهم على ما فات فلا يقضوا الوقت بالاستكانة للحزن والاسف والعزم الكاذب على تلافي اسباب الخطأ والخطية في المستقبل بل ليعزموا الآن — في الحال — في اليوم نفسه والساعة عينها — ليعزموا من فورهم على قطع تلك الاسباب ولا يرجعوا شيئًا الى الغد ليعملوا اليوم كل ما يسرهم ذكره غدًا وليرجعوا في الحال ما يرجع لديهم إمكان التمتع بمحصاد نتائج الحسنة في المستقبل . فيرشعوا كثرهم الحياة صافية من اكدار الخيبة والندم ويتمثلوا صحة جسد وعقل تظل ذبولها وحواشيها ضافية عليهم حتى في ايام الكهولة والحرم

اسعد تحليل داغر

القاهرة

(١) جهد البلاء حالة يخلفها الموت على الخلق . وفي الحديث : — «كان النبي يموت الله من جهد البلاء ودرك السهائم ونجاة الاعداء»